معركة بلاط الشهداء

سنة ١١٤ هـ

حدثت هذه المعركة في شهر رمضان الكريم من سنة أربع عشرة ومائة في مكان أطلق عليه المسلمون اسم بلاط الشهداء يقع شمال بواتييه جنوبي فرنسا.

ذلك أن المسلمين قد استطاعوا فتح مناطق واسعة من فرنسا فأخضعوا إقليم غالة واستولوا على الكثير من مدنه، . وجعلوا لهم قاعدة في سبتمانية هي أربونة، وأخذ ولاة الأندلس يتعاقبون الفتوحَ شمالاً حتى تولى عبد الرحمن الغافقي ـ رحمه الله ـ سنة اثنتي عشرة ومائة من الهجرة.

ويمكننا القول إن عبد الرحمن هو أقدر قائد عسكري عرفته الأندلس في عصر الولاة ومع قلة الأخبار التي وصلت إلينا عنه إلا أننا نستشف منها عظم تقدير المؤرخين له وثناءهم عليه.

عاش عبد الرحمن بداية حياته جنديًّا مجاهدًا في جيش المسلمين جنوب فرنسا ثم اجتمع عليه المسلمون فأصبح واليا للأندلس، لكن هذه الولاية لم تشغله عن أمر الجهاد، ويذكر المؤرخون أن هذا القائد كان مسلمًا سليم الإيمان حريصًا على أصول الشريعة، لا يحفل في سبيل ذلك بغضب الآخرين، ويروي ابن عبد الحكم ــ رحمه الله ـ أن عبد الرحمن سمع بغضب والي أفريقية عليه نتيجة توزيعه الغنائم النفيسة وإخراج خمسها، بل إنه تسلم منه خطاب تهديد ووعيد. فرد عليه عبد الرحمن يقول: «إن السموات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين منها مخرجا».

وإلى جانب ذلك تتحدث المصادر النصرانية عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة وهكذا اجتمعت في هذا القائد المسلم مؤهلات القيادة العسكرية إلى جانب التدين وحب الجهاد، فكان بذلك مثلاً يحتذى وقدوة صالحة للمسلمين على مر الزمان.

وانطلق عبد الرحمن للجهاد وعبر جبال البرانس متجها إلى وسط أوربا وكان يقود عدًا كبيرًا من المجاهدين قدَّرته المصادر الإسلامية بما يتراوح بين سبعين ومائة ألف في حين تقدره المصادر النصرانية بأربعمائة ألف مقاتل، ومهما يكن العدد فإن هؤلاء المجاهدين كانوا صادقي العزم على فتح البلاد ونشر الإسلام فيها.

وبدأ المسلمون بمدينة آرل فاستولوا عليها، ثم هاجموا دوقية أقطانية فهزموا الدوق هزيمة قاسية وتقهقر أمام الزحف الإسلامي، وانساق المسلمون في البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم حتى وصلوا إلى مدينة تور فاستولوا عليها مما دفع الدوق أودو للاستنجاد بشارل مارتل واتحد معه وبذا اتحدت القوى النصرانية في غالة للوقوف في وجه المسلمين.

ورحب شارل مارتل بهذا العرض وبدأ يجمع الجنود من كل مكان حتى من خارج حدود غالة، واجتمع له جيش عظيم أكثر أفراده من الجنود الأجلاف الأقوياء الذين يحاربون شبه عراة في ذلك الجو البارد، وسار بهم لمقابلة الجيش الإسلامي رافعًا شعار إنقاذ أوروبا من المسلمين بنفس مشرئبة للظفر وجنود متطلعة للقتال. وعند بواتييه التقى الجيشان، وهنا تصمت المصادر الإسلامية فلا تورد لنا أية معلومات سوى خبر هزيمة المسلمين وقتل قائدهم وعدد كبير منهم.

والحقيقة أن ذلك لا يعلل إلا بشدة وقع الهزيمة حتى أن الرواة الأوائل كانوا ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الحزن والألم، فاندرجت هذه المعركة وأخبارها في مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأزمان ولم يبق إلا هذه المعلومات.

ومن هنا فلا مندوحة من الرجوع إلى المصادر النصرانية لتتبع المعركة:

ظل الجيشان فترة من الزمن لا يتقاتلان لإحساس الجميع بخطورة هذه المعركة، ثم التحم الجند وثبت المسلمون ثباتًا أدهش النصارى حتى كادوا أن ينهزموا، إلا أن فرقة من النصارى اخترقت الجيش الإسلامي ووصلت إلى مؤخرته حيث الغنائم، وحينما علم المسلمون بذلك التفوا إلى الخلف مما أحدث اضطرابًا في صفوفهم، وحاول عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ جهده أن يثبت جنده

ويعيد إليهم النظام فلم يوفَّق، بل أصابه سهم واستشهد نتيجة لذلك، وصبر المسلمون إلى حين الليل فانتهزوا فرصة الظلام وتراجعوا جنوبًا مسرعين،

والواقع أن الدلائل تشير إلى أن الهزيمة كانت مروعة حقا، فتسمية المعركة ببلاط الشهداء يفهم منه كثرة من استشهد من المسلمين، وذلك الصمت الغريب الذي تسدله المصادر الإسلامية على الموقعة، بل إن بعض المؤرخين المسلمين يشير إلى أنه لم ينج من المسلمين أحد، وأن الأذان ظل يسمع في ذلك المكان إلى عصره كرامة لأولئك الشهداء.

ولو حاولنا تحليل عوامل الهزيمة في هذه المعركة لوجدنا أن على رأسها الاهتمام بالغنائم التي كانت مع المسلمين، بمعنى أن الأهداف السامية للمسلمين قد انحرفت، وهكذا حال المسلمين لا بد أن يخلصوا جهادهم لله سبحانه وتعالى ويجعلوا هدفهم نشر دينه. ثم إن خطوط الرجعة والتموين قد طالت على المسلمين، فعلينا أن نتصور المسافة التي تفصل هذا الجيش عن مركز المسلمين في دمشق وهي دار الخلافة إذ ذاك.

كل هذه العوامل ساعدت على إخفاق المسلمين في هذه المعركة، ومهما يكن الأمر فقد سطر أولئك المجاهدون أنصع الصفحات في الجهاد، ودفعوا أرواحهم ثمنًا له فرحمهم الله أجمعين، ولا شك أن الدروس والعبر كما أنها تستفاد من النصر والنجاح كذلك فإنها تستفاد من الهزيمة والإخفاق ليتحاشى المسلمون أسبابها ويبتعدوا عن عواملها.

ولا أجد في النهاية أبلغ مما قاله أحد الغربيين حينما تحدث عن نتائج هذه المعركة فقال: «إن الحضارة قد تأخرت عدة قرون عن أوروبا نتيجة هزيمة المسلمين عند تور بواتيه».

المراجع:

١ ـ د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ٢٦١ وما بعدها.

٢ ـ د. إبراهيم طرخان: المسلمون في أوروبا ص ١٤٩ وما بعدها.

٣ ـ د. عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي ص ١٩٣ وما بعدها.

فتنة الخرمية

سنة ٢٢١ هـ

عرضنا فيما مضى لمعارك إسلامية عديدة خاضها المسلمون مع أعدائهم من مختلف الملل والنحل، وكانت كلها ضد أعداء من خارج كيان الدولة الإسلامية.

وسنتحدث هنا عن معركة من تلك المعارك التي خاضها المسلمون ضد الأعداء، إلا أنهم في هذه المعركة، أعداء من داخل الدولة الإسلامية بل إنهم يدَّعون الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهؤلاء الأعداء ربما كانوا أخطر من غيرهم، وأكثر حقدًا وعداء، قد عرفوا المسلمين، وخبروا عوراتهم، وهم دائمًا أعوان لمن هاجم البلاد وأراد شرًا بالعباد، ولم يكن وجودهم جديدًا، وإنما عرفوا منذ ظهر الإسلام، واستمروا بعد ذلك في كلِّ زمان، إلى وقتنا الحاضر.

وهذه الطائفة التي سنتحدث عنها اليوم، ظهرت في عصر الدولة العباسية، وثارت على خلفاء العباسيين، وقد كانت قبل ذلك مستمرة مستخفية، فلما أدرك قادتها قوتهم، وضعف الخلافة ظهروا وبدأوا يهاجمون المسلمين.

إنها طائفة من الباطنية يقال لهم الخُرْمَدِينيةُ أي أنهم يدينون بما يريدون ويشتهون، وهو لفظ فارسي هذا معناه، ولقبت هذه الطائفة بهذا الاسم لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذات المحارم وفعل ما يتلذذون به، يشابهون بذلك طائفة المزدكية الفارسية التي ظهرت قبل الإسلام، وحاربها كسرى أنوشروان مع أنه من المجوس.

ظهرت هذه الطائفة الباطنية في عهد المأمون العباسي وقادها رجل اسمه بَابَكُ ونسب لها فعرف بالخرمي، وذلك سنة إحدى ومائتين واستمرت ثورته إلى عهد المعتصم حيث هزم في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين، فاستمرت عشرين عامًا. ثار بابك الخرمي في شمال فارس(إيران الحالية) في مدينة تعرف

(بالبَذِّ) قرب أذربيجان، وقد ورث زعيم الخرمية في تلك البلاد بوصية منه حيث رأى فيه فهما وخبثا، فأوصى أصحابه باتباعه وزعم لهم أن روحه ستخرج منه لتحل في بابك ثم تزوج بابك من امرأته وتزعّم الخرمية. وفي سنة إحدى ومائتين هجرية بدأ في العبث والفساد، وأراد أن يقيم ملّة المجوس، ومع هذا فقد كان بطلاً شجاعًا جبارًا عنيدًا.

وبدأ الخليفة العباسي المأمون يرسل الجيوش لحربه ولكنه يهزمها، وكلما أرسل قائدًا هزم، أو قتل أو أسر، وذلك لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه، وأدى ذلك إلى دخول جماعات كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان، وماسبذان في دين الخرمية، فتقوى بهذه الجموع، وعظم خطره، وزاد عبثه وفساده.

ومات المأمون، وفتنة الخرمية في أوج تأجُّجها، وكتب في وصيته لأخيه المعتصم يقول: «والخرمية: فأَغزِهم ذا حرمة وصرامة وجَلَد، واكنُفه بالأموال والجنود، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم فيمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه».

وتولى المعتصم الخلافة وبذل جهده في كسر شوكة بابك، خشية أن يمتد شرُّه في بقية بلاد فارس، واختار لحربه قائدًا تركيًّا من كبار قوّاده هو «خيدر بن كاوس الأشرسني» المعروف بالأفشين، وسيّر أمامه قائدًا آخر أمره أن يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين أَرْدَبيل وبَرْزَنْد وكلها في أذربيجان، فبناها وجعل فيها الرجال لحفظ الطريق، كما أنه التقى بسرية لبابك فقاتلها وهزمها فقتل عددًا منهم وأسر آخرين وسيرهم إلى المعتصم في بغداد فارتفعت معنويات المسلمين.

ووصل جيش الخلافة بقيادة الأفشين وعسكر في بَرْزَنْد، وبدأت الحرب بين الجانبين وبدأ الأفشين يحقق الانتصارات على الخرمية، واستمرت الحروب مدة طويلة حتى إذا كان شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين. سار

الأفشين من مكانه عازمًا على فتح البذّ وهو مقر بابك، ورتب أموره ترتيبا دقيقًا، ووزع جنده واستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما، ولكن الله نصر جند الخلافة فانهزم بابك واقتحم المسلمون مدينته، فأراد الهرب إلا أن الأفشين سد عليه المسالك وأوقف جنده عليها، فاستطاع القبض عليه مع نفرٍ من أهله، وعاد بهم إلى سامُراء، فكان يوم دخولهم يومًا مشهودًا، فرح المسلمون فيه فرحًا عظيمًا بعد أن أخزى الله بابك وهزم أعوانه، وفي سامُراء ـ عاصمة الخلافة آنذاك ـ قُتل بابك وصُلب ليراه الناس فيفرحوا بهذا النصر العظيم في شهر رمضان.

لقد كانت فتنة عظيمة كادت أن تهلك المسلمين وتقضي على الإسلام في تلك المناطق، لولا عناية الله سبحانه وتعالى، كما أن هؤلاء الأعداء قد حرّضوا النصارى في الدولة البيزنطية لمهاجمة العالم الإسلامي، وحصل ذلك فدُمِّرتْ ثغور المسلمين، مما دفع المعتصم إلى الخروج مجاهدًا لتأديبهم.

واستنفدت هذه الفتنة الكثير من قوة الدولة ورجالها وأموالها، لقد قتل بابك عددًا من قواد المسلمين، أما عامة المسلمين فقتل منهم خلالها مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفًا وخمسمائة إنسان (أي ربع مليون مسلم). أما الأسرى فقد استُنقذ من أسره سبعة آلاف وستمائة إنسان، ووجدوا عنده عددًا كبيرًا من النساء والصبيان ذكروا أن بابك قد أخذهم وأنهم أحرار وبعضهم عرب فجعلهم الأفشين في مكان متسع، وأمرهم بالكتابة لأوليائهم، فكلُّ من عرف امرأة أو صبيا أو جارية وشهد له أخذه، وعاد كثير منهم إلى أهلهم.

أما الخسائر المادية فيكفي أن نعرف أن المعتصم قد بعث لجيشه في مرة واحدة ثلاثين ألف ألف درهم (أي ثلاثين مليون درهم). وقد تكرّر ذلك مرارًا.

ومهما تكن الخسائر فلا شك أن النتائج عظيمة جدًّا، ولنا أن نتصور انتصار هذه الحركة الخبيثة وأثرها في المسلمين، حيث سيفرض أتباعها مذهبهم الفاسد ويلزمون الناس باتباعه. فلله الحمد وله المنة على هذه الانتصارات العظيمة التي

حفظ بها دينه وأعزَّ بها جنده.

ولقد أكرم الخليفة قائده الأفشين بعد هذا النصر العظيم، وكتب له بولاية السند. كما أن الشعراء مدحوه يتقدمهم أبو تمام الطائي الذي قال فيه:

بذَّ الجلادُ البذَّ فهو دفين ... ما إنْ بها إلا الوحوش قطين

لم يُقْبَرَ هذا السيفُ هذا الصبرَ في ... هيجاء إلا عزَّ هذا الدين

قد كان عُذرة سُودَدٍ فافتضّها ... بالسيف فحلُ المشرق الأفشينُ

فأعادها تعوي الثعالب وسطها ... ولقد تُرى بالأمسِ وهي عرين

هطلت عليها من جماجم أهلها ... ديم إمارتها طلى وشؤون

كانت من المهجات قبلُ مفازةً ... عُسرًا فأضحت وهي منه معينُ

المصادر:

١ ـ الطبري جـ ١٠ ص ٢٢٢ وما بعدها.

٢ ـ ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٣٩ وما بعدها.

٣ ـ ابن كثير جـ ١٠ ص ٢٨٣.

فتح عمورية
سنة ٢٢٣ هـ

وقع في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله محمد فتنة عظيمة كادت أن تودي بالخلافة الإسلامية وقادها بابك الخُرَميّ في شرق العالم الإسلامي، ولكن الله أعان المعتصم فأخمدها وأسر قائدها وقتله.

وكان من نتائج هذه الفتنة أن اتصل قادتها وعلى رأسهم بابك بإمبراطور الروم يستحثونه ويطلبون منه مهاجمة الخلافة الإسلامية التي انشغلت بقتالهم، وكان مما قالوه له: إن المعتصم لم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك.

واستجاب ملك الروم توفيل لاستغاثة بابك وجهز جيشًا يزيد على مائة ألف وسار به إلى بلاد الإسلام فهاجم المدن والقرى يقتل ويأسر ويمثّلُ، وكانت مدينة مَلَطْيَةُ من المدن التي خربها الملك توفيل حيث قتل أهلها وأسر نساءها المسلمات حتى أن عددهن بلغ ألف امرأة، وكان يمثل بالمسلمين فيقطع آذانهم وأنوفهم ويسمل أعينهم.

وكان من بين الأسيرات امرأة هاشمية تدعى شراة العلوية استغاثت بالخليفة المعتصم في أسرها ونقل ذلك إليه فلبى استغاثتها.

على أن المسلمين جميعًا في سائر الأمصار قد ضجوا واستغاثوا في المساجد والديار ودخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قائما قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بالمسلمين ويحضُّه على الانتصار ويحثه على الجهاد ومنها:

يا غارةَ الله قد عاينت فانتهكي هتكَ النساء وما منهن يرتكبُ
هب الرجال على أجرامها قُتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

فخرج المعتصم من فوره نافرًا، عليه دراعةٌ من صوف بيضاء، وقد تعمم بعمامة الغزاة وعسكر غربي دجلة، وأرسل طائفة من الأمراء ومعهم جيش كبير

إعانـة عاجلة للمسلمين، وسـاروا إلى تلك الديار فـوجدوا الروم قـد انسحبوا، حينئذ عادوا للمعتصم رحمه الله.

ولم يكن خليفـة المسلمين ليسكت على مـا حل بـالمسلمين، وكيف يسكت وأصـوات الاستغاثـات لا زالت أصـداؤها تتردد في أذنيـه، وأسرى المسلمين مع الروم. ولذا جمع الأمـراء وسألهم: أي بلاد الروم أمنعُ؟ قالوا: عمـورية لم يعرض لها أحد منـذ كان الإسـلام، وهي عندهم أشرف من القسطنطينيـة، فقال: هي هدفنا.

وبدأ الخليفة يستعـد فاستدعى الجيـوش وتجهز جهازًا لم يجهزه أحـد كان قبله من الخلفـاء، وأخـذ معـه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقـرب والـدواب والنفط والخيل والبغال شيئا لم يسمع بمثله، ولا غرو في ذلك فالهدف عظيم وقد أراد أن يجعلها حاسمـة لا تقوم للروم بعدهـا قائمة، بل إن أهـدافه تعدت مجرد الأخذ بالثأر وتأديب الروم إلى فتح بلادهم كلها وضمها للمسلمين.

وسـار المعتصم في جحافل أمثـال الجبـال، وبعث الأمـراءَ إلى مناطق الثغـور ووصل إلى قـرب طرسـوس، وسمع ملك الـروم بهذا الزحف الإسـلامي العظيم فجهز جيشـه وسار لملاقـاتهم، وتلقَّاه قـائد المعتصم الأفشين بفرقـة من الجيش الإسـلامي فهزمـه شر هزيمـة، وعلم بذلك المعتصم فسُر سرورًا عظيما، وفـرق جيشه ثلاث فرق اتجهت كلها إلى عمورية فحاصرتها.

وعمورية مدينـة عظيمة جدا، ذات سور منيع وأبراج عـالية كبارٍ كثيرة، وقد تحصن أهلها تحصنًا شديدًا، وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح، ولكن ذلك كله لم يفتَّ في عضـد المسلمين بل ضيقوا عليهـا الحصار وبـدأوا يرمـونها بالمجـانيق، وبدأت الأسوار تتهاوى من جراء ذلك، وأصـاب اليأس أهلها وبخاصة بعد ما وقع في السور ثغرة كبيرة بدأ المسلمون يدخلون معها.

وتكاثر المسلمون داخل البلد وهم يكبرون ويهللون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلـونهم في كل مكان، ولم يبقَ في المدينة مـوضع محصن سوى

المكان الذي فيه نائبها منـاطس، وهو حصن منيع، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحـذاء الحصن فناداه المنـادي ويحك يا مناطـس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك، فقالوا: ليس بمنـاطس ههنا مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس: هذا مناطس هـذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلعت الرسلُ إليه وقالوا له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنَّع ثم نزل متقلدًا سيفه، فـوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربـه بالسوط على رأسه ثم أمـر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة مُهانًا.

وهكذا فتح المسلمون مدينة عمورية وأخذوا منها أموالاً كثيرة، وأسروا أعدادًا من الروم افتُدي بهم أسرى المسلمين.

وكـان من أهـداف المعتصم أن يستمـر في الجهاد حتى يفتـح عاصمـة الـروم بيزنطة لولا حدوث فتنة في بغداد اضطرته للعودة.

وخلد المؤرخون اسم هذا الخليفة المسلم لما قام به من نجدة المسلمين والدفاع عنهم، كما خلده الشعراء وعلى رأسهم أبو تمام حبيب بن أوسٍ.

المصادر:

١ ـ خليفة بن خياط: تاريخه ص ٤٧٧ تحقيق أكرم ضياء العمري.

٢ ـ الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ ١٠ ص ٣٣٤ وما بعدها.

٣ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٤٧.

٤ ـ ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٨٦.

فتح حارم
سنة ٥٥٩ هـ

وتتواصل انتصارات المسلمين في هذا الشهر العظيم يقودهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فرسان في النهار عباد في الليل .

ولنقلب صفحات التاريخ ونعود إلى شهر رمضان عام ٥٥٩هـ حينما كان الصليبيون يجثمون على قلب العالم الإسلامي في الشام وفلسطين ، تتواصل إليهم الإمدادات من أوروبا ويقف وراءهم ملوكها وأباطرتها ورجال الدين فيها وعلى رأسهم من يدعونه بالبابا .

في ذلك التاريخ كان المسلمون قد أفاقوا بعد الهزائم المريرة التي تجرعوها ورزقهم الله قادة أبطالاً جعلوا الجهاد همهم وإعلاء كلمة الله هدفهم وتحرير بلاد المسلمين غايتهم ، وكان من هؤلاء الأبطال نور الدين محمود بن زنكي ذلك الشاب اليافع ، الذي تربى في مدرسة الجهاد مع والده عماد الدين زنكي ثم ورث ملك والده في الشام ، وجمع كريم الخصال وجميل الخلال يزينها تدين وعبادة حتى لقد شبهه كثير من المؤرخين بجيل التابعين وقالوا لم يتول بعد عمر ابن عبد العزيز أعدل منه .

كان هذا الحاكم المسلم الشاب يحب العلماء ويقربهم فاكتسب منهم التقوى والورع ورسم لنفسه هدفًا أخذ يعمل لتحقيقه هو في الحقيقة أسمى الأهداف وأعظمها ألا وهو الجهاد في سبيل الله ، لم يركن إلى ملكه ونعمه الزائلة كما يفعل كثير من أترابه الحكام ، بل آثر النعيم الباقي ، وعمل لتحقيقه ، فانقادت له الآمال ، وتحققت له الأهداف .

كانت مصر في ذلك الوقت خاضعة للشيعة العبيديين قد عطلوا دورها في الجهاد فرأى نور الدين أن ضمها للجبهة الإسلامية أمر حتمي لتحقيق النصر فأرسل لهذا الغرض حملة قادها أسد الدين شيركوه الأيوبي ، ولم يكن الصليبيون

ليرضوا بضم مصر إلى الشام وهم يدركون خطورة ذلك على ممالكهم في الشام لذلك أرسلوا قواتهم لمحاصرة أسد الدين قائد الحملة الزنكية وتم لهم ذلك في مصر، وضيقوا عليه الخناق، فطلب العون من نور الدين في الشام، وأدرك نور الدين محمود أن مهاجمة الصليبيين في الشام قد يجعلهم ينسحبون من مصر، فأرسل للبلاد الإسلامية يطلب المجاهدين، واجتمع له جمع غفير سار بهم إلى قلعة حارم، وعلم الفرنج بذلك فجمعوا جيوشهم وساروا للقائه في أعداد عظيمة يقودهم أربعة من ملوكهم المشهورين، والتقى الجمعان في شهر رمضان المبارك ووضع المسلمون الخطط الحربية للقضاء على التفوق العددي للصليبيين ونجحت تلك الخطط ولنترك وصف هذه المعركة لمؤرخ معاصر لها، هو ابن الأثير حيث يقول رحمه الله :

«فحينئذ حَمِيَ الوطيس وباشر الحربَ المرءوسُ والرئيسُ وقاتلوا قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من يئس من الحياة، وانقضت العساكر الإسلامية انقضاض الصقور على بُغاث الطيور فمزقوهم بَددا وجعلوهم قِدَدًا، وألقى الإفرنج بأيديهم إلى الإسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة وكان منهم الملوك الأربعة».

وسار نور الدين فملك حارم في الحادي والعشرين من رمضان عام ٥٥٩هـ. وهكذا نصره الله على عدوه وملّكه بلاده، فالنصر دائمًا من الله سبحانه وتعالى، يهبه لعباده الصالحين الصادقين. ولننظر إلى سيرة هذا القائد الشجاع الورع قبل المعركة، لقد انفرد تحت تلٍّ، حينما التقى الجمعان وسجد لربه عز وجل، ومرّغ وجهه وتضرّع، وقال: هؤلاء يا رب عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك «ما فُضولُ محمودٍ في الوسط» يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت فلا تمنعهم النصر بسبب محمودٍ ـ يعني نفسَه ـ إن كان غير مستحق للنصر.

منتهى العبودية والخضوع والخشـوع من قائد المسلمين لله عز وجل، ولا شك أن هذه مفاتيح النصر: العبادة والـدعاء والإلحاح في ذلك اقتداءً بسيرة المصطفى ﷺ.

لقد كـانت هذه المعـركة درسًـا عمليًّا للمسلمين على مـر الزمـان لكي يحققوا عوامل النصر كما حققها سلفهم رحمهم الله أجمعين.

المصادر:

١ ـ ابن الأثير: الباهر ص ٢١٩ وما بعدها.

: الكامل جـ ٩ ص ٨٦.

٢ ـ أبو شامة المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ و٢ ص ٣٣٩ وما بعدها.

فتح صفد وأخذها من الصليبيين
سنة ٥٨٤ هـ

إن الناظر في التاريخ الإسلامي يدرك أن أمة الإسلام قد وجدت لتبقى ما دامت متمسكة بشريعة الله لا يضرُّها من عاداها، فهي تفيق بعد كل كبوة وتنتصر بعد كل هزيمة، فالشفاء والعلاجُ وأسباب النصر وعوامله كلها أمور موجودة متيسرة في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

ولنعد بالذاكرة قرونًا طويلةً حينما هاجمت أوروبا بجحافلها وفرسانها بلاد الإسلام في هجمة صليبية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية فأصابت في المسلمين ضعفا استفادت منه، واستولى الفرنج الصليبيون على مناطق واسعة في قلب العالم الإسلامي، وتأسست ممالك نصرانية، ولكن سرعان ما أفاق المسلمون وتحرك العلماء والخطباء يدعون إلى الجهاد فاستيقظت العقيدة وتحركت في النفوس، وأخذ المسلمون يهاجمون تلك الممالك ويستعيدون بلاد المسلمين، ويطردون فلول النصارى. وهذه سمة وميزة في أمة الإسلام حينما تُحرك العقيدةُ ويتاح لها المجالُ للانطلاق تظهر البطولات التي تشبه المعجزات وينقلب الضعف قوة والهزيمة نصرًا وتمكينًا.

لقد أخرجت لنا هذه الأمة في تلك الفترة ـ فترة الجهاد ضد الصليبيين ـ قادة أبطالاً انطلقوا بالمجاهدين يقودونهم من نصر إلى نصر ويحررون المدن والقرى ويطهرونها من رجس الصليبيين.

وتسلَّم راية الجهاد قاهر الصليبيين ومحرر بيت المقدس صلاح الدين بن أيوب ـ رحمه الله ـ فجعل كل همِّه الجهاد في سبيل الله، وسخر طاقاته وكل ما يملك لهذا الغرض، وتخلص من الدنيا وزخارفها، وأصبح عصره بحقٍّ عصرَ جهادٍ وعلم. اقتدى به جنده وأمراؤه وقادة دولته، بل أصبح شعبه في مصر والشام والحجاز لا شغل له ولا حديث إلا عن الجهاد وفي الجهاد، فحقق الانتصارات

وكان أعظمها يوم حطين حينما كسرت الصلبان ونكست، وهزم الصليبيون شر هزيمة، ثم كان فتح القدس العظيم حينما طُهرت مساجد المسلمين وعلى رأسها المسجد الأقصى من دنس الصليبيين المعتدين، وهكذا استمر يفتح ويحرر حتى إذا كان في شهر رمضان عام ٥٨٤هـ جاء دور مدينة صَفَد تلك المدينة الحصينة التي هي أشبه بالقلعة العظيمة تحيط بها الأودية من جميع الجوانب فتزيدها حصانة وتضفي عليها مزيدا من الحماية.

و إذا كان الناس يحبذون الاجتماع بالأهل والأحباب في رمضان فقد حبذ هذا القائد الشجاع أن يجتمع في ميدان المعركة مع السيف والدرع في وجه العدو وهو صائم لله قائم له مجاهد في سبيله.

ولنترك الحديث عن هذه المعركة لواحد شارك فيها وروى خبرها وهو المؤرخ ابن شدَّاد: يقول: «كنت عند صلاح الدين في خدمته وقد عين في إحدى الليالي مواضع خمسة مناجيق حتى تُنصب في تلك الليلة، فقال: ما ننام حتى تُنصب الخمسة، وسلَّم كلَّ منجنيق إلى قوم وأخذ يتابع أخبارهم ويمر عليهم حتى تم ذلك» يقول ابن شداد: فذكرته بحديث رسول الله ﷺ المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله عليه الصلاة والسلام «عينان لا تمسُّهما النار: عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية الله»

وهكذا حال العلماء الصالحين يذكرون ويعظون، وما نجح صلاح الدين إلا بمثل هذا العالم الفقيه والجليس الصالح.

واستمر القتال على مدينة (صَفَد) متواصلاً والمسلمون صائمون طيلة شهر رمضان حتَّى إذا كان الرابع من شوال سلِّمت بالأمان واستعادها المسلمون من الفرنج النصارى، وحقق صلاح الدين في هذا الشهر الكريم نصرًا آخر يضاف إلى انتصاراته السابقة، فرحمه الله وأجزل له الأجر والمثوبة لقاء ما قدم للإسلام والمسلمين.

المصادر:

١ ـ بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المشهور بسيرة صلاح الدين ص ٩٥ تحقيق جمال الدين الشيال الطبعة الأولى.

٢ ـ العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٢٣، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢هـ، المطبعة الخيرية، مصر.